﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن عاينَ وسمِعَ ولَم يتدبَّرْ لم يَنتفِعْ ولو تفكَّرَ فيما سمِعَ لانتفعَ

"لمّا تضمَّنَ الكلامُ السّابقُ إهلاكَ الأمم السّالفة، وبقيَت آثارُهم خرابًا، عقبَه بذمِّ هؤلاء في عدم اتِّعاظهم بذلك"[1]؛ ففي الآية الكريمة هنا "ذِكرُ ما يتكامَلُ به ذلك الاعتبارُ؛ لأنَّ الرّؤيةَ لها حظٌّ عظيمٌ في الاعتبار، وكذلك استماعُ الأخبار فيه مَدخَلٌ، ولكن لا يكمُلُ هذان الأمران إلّا بتدبُّر القلب؛ لأنَّ مَن عاين وسمِع ثمّ لَم يتدبَّر ولم يَعتبِرْ لم يَنتَفِعْ ألبتَّة، ولو تفكَّرَ فيما سمِعَ لانتفَعَ؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسِيرُواْ﴾: (سير) أصلٌ يدُلُّ على مُضي وجَرَيانٍ[3]، والمعنى المحوريّ: امتدادٌ طوليٌّ مُطَّرِدٌ، مع دقَّة ما: كالسّير والشِّراك[4]، سارَ يَسيرُ سَيْرًا ومَسيرًا وتَسْيارًا، والسَّير: الذَّهاب ليلًا أو نهارًا، والسُّرَى يكون باللَّيل فقط[5]، والانتقال على الأقدام.

2) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: (عقل) أصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ مُطَّرِدٌ، يدُلُّ عُظمُهُ على حُبسَةٍ في الشَّيءِ أو ما يُقارِبُ الحُبسَةَ[6]، والمعنى المحوريُّ: حَوزٌ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 541.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 233.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (سير).
(5) أحمد رضا، معجم متن اللّغة: (سير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).

في جوفٍ حصينٍ حبسًا بحيثُ لا يذهبُ أو يضيعُ[1]، وأصلُ العَقلِ: الإمساكُ والاستمساكُ، كعَقْل البعيرِ بالعِقال، وعَقْلِ الدّواءِ البطنَ، وعَقَلَتِ المرأةُ شعرَها، وعَقَلَ لسانَه: كفَّه[2].

3) ﴿قُلُوبٌ﴾: (قلب) أصلٌ يدُلُّ على رَدِّ شيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ، أو على خالصِ الشّيءِ وشريفه (باطنُ الشَّيءِ ولُبُّه)[3]؛ ومنه قلبُ الإنسان؛ وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ الّتي في الصّدر؛ فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصُهُ[4]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلُّبه، ويُعبَّرُ بالقلبِ عنِ العقلِ، وعنِ المعاني الّتي تختصُّ به مِنَ الرّوح والعلم، والشّجاعة وغير ذلك[5].

4) ﴿ءَاذَانٌ﴾: (أذن) أصلان مُتقاربان في المعنى، مُتباعِدان في اللّفظ؛ أحدهما: أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ: العِلم[6]، يُقالُ: أذِنَ بالشَّيءِ إذْنًا وأذَنًا وأذانةً: عَلِم، وآذَنَه الأمرَ وآذَنه بِهِ: أعلَمَه[7]، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه[8]، والإذن في الشّيء أيضًا: رفعُ الحِجاب عنه، والأُذُن: عُضو السَّمع في الإنسان والحَيَوان، وجمعها: آذان[9]؛ وهذا هو المراد في الآية الكريمة.

5) ﴿تَعْمَى﴾: (عمي) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ، مِن ذلكَ العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَينَينِ كِلتَيهِما، والفِعلُ مِنهُ عَمي يَعمَى عَمًى[10]، وعمي الرَّجل؛ كأنَّه سُتِرَت عنه المَرئياتُ، وعمي عنِ الصَّواب تشبيهٌ، كأنَّه سُتِرَ عنه، والعَمَى في القرآن على ثلاثة أوجه؛ الأوّلُ: عمى القلب؛ قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾؛ والمعنى: أنّها لا تَنتفعُ ببصائرها كما لا يَنتفعُ العُميُ بأبصارهم (وهو المعنى المُراد هنا في الآية)، والثّاني: عمى البصر؛ قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: 61]، والثّالث: العمى عنِ الحُجَّة؛ قال تعالى: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: 125][11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (عقل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(4) الزّبيديُّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (قلب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (قلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).
(8) الرّاغب، المُفردات: (أذن).
(9) مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (أذن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(11) العسكريّ، الوجوه والنّظائر: (العمى).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنـــذار لـهـم بـتـسـبـبـهـم لأنـفـسـهـم الهلاكَ

ترشِد الآيات كلَّ ناكص مستكبرٍ أن يحرّكَ آلات الاعتبار في ملكاته العقلية، بأن يسافروا، ويخرجوا من مُغلقات أوهامهم، ليرَوا كيف كانت مصارع المُهْلَكين، فيعتبروا، ويحصلَ لهم من الاستبصار والاستدلال بما نَزَل بالمكذِّبين قبلهم، ويُعْمِلوا أسماعهم وأبصارهم، فإنّ عمى البصيرة هو العمى الحقيقي لعمايتها عن إدراك الحقيقة، ورتوعها في عفونة الأوهام والانهماك في التقليد.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهام في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾:

الاعتبارُ بمصير المُكذِّبين بالدّين يُنجي ممّا حلَّ بهم مِنَ الهلاك

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ همزةُ الاستفهام الدّاعيةُ إلى النَّظر والتَّدبُّر في ملكوت الله تعالى، والاستدلالُ على وجوده ﷻ ووحدانيّته، والتَّصديقُ برسوله ﷺ ومحاذَرَة تكذيبه؛ فالنَّظر والتَّدبُّر يُقرِّرُ صِدقَ ما كذَّبوا به، وينُجّي ممّا سقطوا فيه، ويقفُ النّاظِرُ على أخبار القُرى المُهلَكَة بتكذيبها، وهذا الاستفهام مُفعَمٌ بالدّلالات والإشارات؛ ففيه حَضٌّ لكُفّار قريش على السّياحة في الأرض؛ للتَّدبُّر في آثار الأمم البائدة، "ويُحتمَلُ أنْ يكونوا قد سافروا ورَأوا ذلك؛ ولكنْ لم يَعتبروا؛ فجُعِلوا كأنْ لم يُسافروا، ولم يَرَوا"[1].

مـــا أعـــجـــبَ حـــــال قـــومٍ عـرفـوا أسـبـاب هـلاك الأقـــوام فاتّبعوها!

وبالاستفهام "وَبَّخَهُمُ اللّهُ تعالى على الغفلة وترك الاعتبار"[2]، وفيه "نَخْسٌ لهؤلاء المشركين من قريش، الّذين تصدّوا لرسول الله، وكذَّبوه وآذوه، دون أن ينظروا في عاقبة أمرهم، ودون أن يلتفتوا إلى ما وراء هذا المُنكَر الّذي هم فيه"[3]؛ فهو "استفهامٌ تعجيبيٌّ من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المُكذِّبة لأنبيائها، والتَّعجيبُ مُتعلِّقٌ بمَنْ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 233.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 128.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1052.

سافروا منهم، ورأوا شيئًا من تلك القُرى المُهلَكة، وبمَنْ لم يُسافروا، فإنَّ شأنَ المُسافرين أن يُخبِروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾"[1].

معنى الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾:

عـدمُ السّياحة في الأرض بِنية الاعتبار يَحولُ غـالـبًـا دون الاتّعاظ

الفاءُ في جملة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ حرف "عطف على مُقدَّرٍ؛ أيْ: أغَفِلوا فَلم يسيروا فيَعتبروا؟!"[2]، أو "سببيَّةٌ جوابيَّةٌ، مُسَبّبٌ ما بعدها على السَّيْر؛ أيْ: لم يسيروا سيرًا تكونُ لهم به قلوبٌ يَعقلون بها، وآذانٌ يَسمعون بها؛ أي: انتَفى أن تكونَ لهم قلوبٌ وآذانٌ بهذه المَثابة لانتفاء سَيرِهم في الأرض. وهذا شأنُ الجواب بالفاء بعد النَّفي: أنْ تدخُلَ الفاءُ على ما هو مُسبَّبٌ على المَنفي لو كان ثابتًا"[3].

دلالة (لم) في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾:

ليس للمُكذِّبين بـالـدّيـن عُـذرٌ؛ فـمـنـهـم مَـن رأى ومنهم مَنْ سـمـع بِـمـصير المُكذِّبين

(لم) في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ جازمةٌ نافيةٌ، تدُلُّ على أنَّهم قد علموا من أخبار الأمم المُهلَكة، وأنّ ذلك كان حقُّه تصديقَ الرّسولِ ﷺ، فقد ساروا في رحلاتهم شمالًا وجنوبًا، ورأوا مَصارِعَ المُكذِّبين، أو عَلِموا مَصيرَ الظّالمين؛ فالأخبارُ تطيرُ وتنتشرُ بين النّاس، فما لهم لا يؤمنون؟ ومعلومٌ أنّهم يَمرّون في أسفارهم بِديار عادٍ وثمودَ؛ فمنهم مَنْ رأى، ومنهم مَنْ سَمِعَ، ومع ذلك لم يَعتبروا.

دلالة التّعبير بالسّير في ﴿يَسِيرُواْ﴾:

السّياحة تَزيدُ الـهِـمّـة نـفـاذًا في الاعـتـبـار بأسباب النَّجاح والخسارة

في التّعبير بمادّة السّير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ دون مادّةِ المَشي أو السَّعي إشارةٌ إلى يُسر النَّظَر وإمكان التَّدبُّر، وضرورة التَّنبُّه إلى ما حلَّ بالأقوام المُكذِّبين، المذكورين في قوله تعالى قُبَيْلَه مباشرةً: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا﴾، و"السّيرُ في الأرض إمّا حِسّي،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 287.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 541.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 287.

أو معنويٌّ باعتبار سماع أخبارها مِنَ الغير، أو قراءتها في الكتب؛ فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ راجعٌ للسَّير الحِسّي، وقوله: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾ للسَّير المعنويِّ"[1]؛ أي: يسيرون في الأرض "بأبدانهم، وبفكرهم أيضًا، وذلك كافٍ"[2].

في السَّفر فوائدُ لكلِّ ذي هِمَّة

و"شأنُ الأسفار أن تُفيدَ المسافرَ ما لا تُفيدُهُ الإقامةُ في الأوطان مِنِ اطِّلاعٍ على أحوال الأقوام، وخصائص البلدان، واختلاف العادات؛ فهي تُفيدُ كلَّ ذي هِمَّة في شيءٍ فوائدَ تَزيدُ هِمَّتَه نفاذًا، فيما تتوجَّهُ إليه، وأعظمُ ذلك فوائدُ العِبرة بأسباب النَّجاح والخسارة"[3].

دلالة المضارعة في ﴿يَسِيرُواْ﴾:

على مَن سبق له الاعتبار - بالسّفر أو بالسَّماع - استحضارُ العِبَرِ وعدمُ نسيانها

المضارعة في ﴿يَسِيرُواْ﴾ تترجِمُ تجدُّدَ السَّير واستمرارَه وعدمَ انقطاعه حتّى يُثمِرَ في نفوسهم الإيمانَ واليقينَ بحتمية هلاك المُكذِّبين، وفي المضارعة كذلك ضرورةُ استحضار مَن سافر فرأى، أو سمع فاعتَبرَ تلك العِبر، وعدم الغَفلةِ عنها؛ فذلك أجدى عليه في دوام الإيمان، وعدم السّقوط في أسباب الهلاك.

مَرجِعُ ضمير الجماعة في جملة ﴿يَسِيرُواْ﴾:

الدّعوة إلى السَّير في الأرض للاعتبار للنّاس جميعًا؛ لعالميّة الدّعوة

المُتحدَّثُ عنه في جملة ﴿يَسِيرُواْ﴾ "كفّارُ مكّة؛ أيْ: فيشاهدوا هذه القُرى فيتَّعظوا، ويَحذَروا عِقابَ اللّه تعالى أن ينزِلَ بهم كما نزلَ بِمَن قبلَهم"[4]، ثمَّ فيه دعوةٌ لجميع النّاسِ بعدَهم أن يسيروا ويَنظروا ويَعتَبروا؛ فرسالةُ الإسلام خاتمةُ الرِّسالات؛ وهي عامَّةٌ للثَّقلَيْن جميعًا، وحتّى يوم الدّين.

سِرُّ التَّقييد بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دون (على الأرض):

القيدُ بالظَّرفيَّة (في الأرض) يَلفت إلى رسوخ الوِجهة وعُمق أثرها

القيد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: في البلاد[5]، وفي التّقييد بالظّرف فيه دونَ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 541.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 438.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 288.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 77.
(5) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127.

الاستعلاءِ (على الأرض) دعوةٌ إلى تعميق النَّظر، وتحقيق التَّدبُّر: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لا التَّسطُّح في الفكر، والمرور بالتّفكير السَّريع: (على الأرض).

معنى الفاء في جملة ﴿فَتَكُونَ﴾:

السَّفَرُ الجادُّ يُسفِرُ عن نظرٍ واعتبارٍ

الفاءُ في جملة ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ﴾ تفريعيَّةٌ عاطفةٌ؛ تُرَتِّبُ التَّدبُّرَ على السَّير، وتوحي بأنَّه يجب أن يُسفِرَ السَّيرُ عن نظرٍ واتِّعاظٍ ويقينٍ؛ بأنّ التّكذيبَ مُهلِكٌ، على غرار ما أُهلِكَ عادٌ وثمودُ وسواهم مِنَ الأمم المُكذِّبة للرُّسل.

دلالة التَّعبير بالكون في جملة ﴿فَتَكُونَ﴾:

يجبُ ألّا يمرَّ النَّظَرُ بلا أثرٍ نافعٍ

التّعبيرُ بالكون في جملة ﴿فَتَكُونَ﴾ يدعو إلى توفير التَّعقُّل والاعتبار مِنَ العقل والقلب، وضرورة أنْ ينعقِدا على ثمرة السَّير والنَّظر، وألّا يمُرَّ النّظرُ بلا أثرٍ إيجابيٍّ نافعٍ.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

التَّدبُّرُ في آيات الله من جليل النِّعم

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في جملة ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ﴾ يَلفِتُ إلى أهمّيّة أن تُسفِرَ السّياحةُ في الأرض بِغرض النّظر والاعتبار عنِ امتلاكهم قلوبًا صفتها ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾؛ فذلك من جليل النِّعم الّتي يجبُ الإفادةُ منها وعدمُ إهمالها.

مَرجِعُ الضّمير في ﴿لَهُمۡ﴾:

الضّميرُ (هم) في القيد ﴿لَهُمۡ﴾ يَرجِعُ إلى كفّار قريش، الّذين يُكذِّبون دعوةَ الرّسول ﷺ، فتوجِبُ هذه الآيةُ عليهم تدبُّرَ مصيرِ المكذِّبين السّابقين مِنَ الهلاك، وأن يحذَروا من مثل مآلهم.

سِرُّ التّعبير بالقلوب دون الأفئدة:

التّعبيرُ بالقلوب في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ يوحي بأنّ قلوبَ الكافرين المُكذِّبين مُتقلِّبةٌ لا رزانةَ فيها، ولا رسوخَ لها في ميدان الفكر والنَّظر، وأنَّه كان ينبغي لها أن تعقلَ ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾، وأن تنعقِدَ على ثمار التَّدبُّر الصَّحيحة،

ولا يُؤدّي هذا المعنى لفظُ (الفؤاد)؛ لأنَّ أصلَه من (فَأَدَ)؛ أيّ: شوى؛ فيكون معنى الفؤاد: المُحترِق؛ ومنه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10]؛ أيّ: مُحتَرِقًا على ولدها.

لا ثمرةَ لقلبٍ وعقلٍ محرومَينِ مِنَ الرّزانة والاستقامة في التّفكير

دلالة جمع ﴿قُلُوبٌ﴾ وتنكيرها:

جُمِعَت ﴿قُلُوبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ باعتبار جموع الكافرين المعاصرين للنّبيّ ﷺ، وجموع الكافرين المعاصرين للأنبياء السّابقين عليهم السلام.

لو تقلَّبَتِ القلوبُ في خلق الله تفكُّرًا وتدبُّرًا؛ لاستدلَّت على صدق أنبيائه

وإلى ذلك تَفوحُ من جمع ﴿قُلُوبٌ﴾ - وتنكيرها - دلالةُ النَّعي عليهم؛ وذلك بتجريدهم من كلِّ حكمةٍ، وتعطيلهم ممّا وهبَهم اللهُ تعالى مِن أهمِّ جارحةٍ يمتلِكُها الإنسانُ؛ بل لا بقاءَ له بدون وجودها وسلامتها، وهي القلوبُ الّتي ينبغي لها أن تتقلَّبَ في خلق الله تعالى تفكُّرًا وتدبُّرًا؛ فَتَخرُجَ باستدلالٍ وحدانيَّته ﷻ، وتصديق أنبيائه عليهم السلام، وتَنعقِدَ على اليقين بذلك.

مَوقِعُ جملة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾:

مُهِمّة الأذهان أن تُنتِجَ الفِكرةَ ثمّ تُوردَها القلبَ فيعقلَها وينعَقِدَ عليها

جملة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ صفة لـ ﴿قُلُوبٌ﴾، وفيها تنبيهٌ على سبب الإزراء على مُكذِّبي الرُّسل - وهم هنا كفّار مكّةَ - فمُهِمّةُ الأذهان أن تتفكَّرَ وتنتجَ الفِكرةَ، ثمّ توردَها القلبَ؛ فيعقِلَها وينعَقِدَ عليها.

وهؤلاء عطّلوها عن مُهمَّتِها، وصرفوها إلى ضدِّها؛ فانعقدَت على الكفر والضّلال حتّى بَلَغَ بهم ذلك أن قاتَلوا الأنبياءَ، وحاربوا المؤمنين مِن بعدهم.

بلاغة حذف مفعول ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

مُكذِّبو الرُّسل مُجرَّدون من كلِّ عقلٍ مهما ظهر للنّاس غير ذلك

لم تَذكُرِ الآيةُ الكريمةُ مفعولًا للفعل ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وتقديره: فَيَعقلون "ما حلَّ بالأمم السّابقة حين كذَّبوا أنبياءَهم، ويَعقلون ما يجبُ عليهم مِنَ التَّوحيد"[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 521.

ولطيفةُ حذفِ المفعول هذا - مع حتمية تقديره - زيادةُ الإزراء عليهم؛ وذلك بتجريدهم مِن نعمة العقل المُطلَق، ولو حَدَّدَتِ الآيةُ الكريمةُ معقولًا مُعيَّنًا لربَّما توهِّمَ احتمالُ أنّهم يَعقلون غيرَه - إذ لم يَعقلوه، وذلك يُناقِضُ مَقامَ الإزراء.

دلالة التّعبير بمُفرَدَة (العقل):

مُهمَّة القلب هي عَقلُ المعاني وعقدُها، إنْ صوابًا وإنْ خطأً

في اصطفاء مُفردة (العقل) في جملة الصّفة ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ إشارةٌ إلى أنّ مُهمّةَ القلبِ هي عقلُ المعاني وعقدُها، وأنّه يتلقّى ما يُسفِرُ عنه الذّهنُ من فِكرٍ ومعانٍ، فيحتضنُها ويَنعقِدُ عليها، ويَنشرُ آثارَها في الجوارح سلوكًا مُتَرجَمًا، وأفعالًا مُحقَّقةً، فالذّهنُ يُفكِّرُ ويتدبَّرُ، ويقبلُ ويَرفُضُ، والقلبُ يَنعقِدُ على ذلك، ويصرِّفُ الجوارحَ عليه، وهكذا دائرة حياة العباد.

نكتة التّعبير بالمضارعة في ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

مع تطاوُل أعمار الكافرين لم يَنتفِعوا بتلك الفُرَص

في التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ دَعمٌ للإزراء على هؤلاء المخذولين؛ حيثُ تطاوَلَت بهم الأعمارُ، ومُنحوا مِنَ الأزمان ما كان مُتجدِّدًا، مُتَّسِعًا لتجديد التَّفكُّر والتَّبصُّر، وتثبيت التَّعقُّل، ومع ذلك لم يَنتفِعوا؛ فدلالة المضارعة هنا تُقيمُ الحُجَّةَ عليهم في إهدارهم فُرَصَ الإيمان فرصةً بعد فرصة، وتحذِّرُ كفّارَ قريشٍ من مثل مَصيرهم، وتُهيبُ بهم أن يُجدِّدوا التَّفكُّر والتَّبصُّر؛ لعلَّه يزيحُ عن بصائرهم الغشاوةَ.

سِرُّ تقييد العقل بالجرِّ والمجرور ﴿بِهَآ﴾:

القلبُ مَركزُ الحياة تتأثَّرُ به كلُّ خليَّة في الجسم كما يتأثَّرُ هو بكلِّ خليَّة

في تقييد عَقل القلوب بالجارِّ والمجرور ﴿بِهَآ﴾ إلحاحٌ على تأكيد مُهمَّتِها، وتوجيهٌ إلى عظيم ثمرتها، ودعوةٌ للمتلقّي من كفّار قريش ومَن وراءَهم إلى يوم القيامة إلى ضرورة الإفادة منها، وإلّا كانت حُجَّةً عليهم ووبالًا على مصيرهم الأخرويِّ الأسود، و"إذا أضافَ القرآنُ الكريمُ إلى القلب علمًا ومعرفةً وحكمةً وإيمانًا، فإنَّما ذلك

لأنَّه سلطانُ الجسد كلّه، وإلى صلاحه أو فساده يعود صلاحُ أعضاء الإنسان وفسادُها ... فلو كان القلبُ سليمًا مُعافًى مِنَ العلل لَسَلِمَ العقلُ، ثمّ لَكان إدراكُه للأمور سليمًا، وتقديرُه لها صحيحًا"[1].

معنى ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾:

إعمال القلوب وحدَها أو الآذان وحدها كافٍ في الوصول إلى الحقيقة

في التَّعبير بحرف العطف ﴿أَوْ﴾ دون (الواو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ إشارةٌ إلى كفايةِ واحدٍ من تلك المِنح الموهوبة للكافر في الاستدلال على وحدانيّة الله تعالى وصِدق الرُّسل عليهم الصّلاة والسّلام، وكافية في الدّلالة على أنّ إعمالَ القلوب وحدَها كافٍ في الوصول، وأنَّ إعمالَ الآذان وحدَها كافٍ كذلك في الوصول إلى الحقيقة، بشرط إعمال هذه أو تلك إعمالًا قويمًا مستقيمًا، لا مُنحرِفًا ضالًّا.

دلالة جمع الآذان:

الآذان سبيل إيصال العِلم إلى القلب؛ فتعطيلها تعطيلٌ لمُهمّته

في جمع الـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ كما في جمع الـ ﴿قُلُوبٌ﴾ مطابَقةٌ لِجموع المخذولين، وإشارةٌ إلى قيام الحُجَّة عليهم - واحدًا واحدًا - بتعطيلهم ما وهبَهُمُ اللّهُ تعالى من نعمة السَّمع؛ الّتي هي سبيلُ إيصال العِلم إلى القلب؛ ففي تعطيلها تعطيلٌ لمُهمّة القلب غالبًا، وفي تعديد تلك الجوارح المُعطَّلَة تعديدٌ لِجرائمَ تَستوجِبُ العِقابَ، فضلًا عن إبطال حُجَج الكافرين يوم الدّين.

مَوقِعُ جملة ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾:

لا قيمةَ لآذانٍ لا تُسمِعُ القلوبَ والخطورة أن تُسمِعَها إسماعَ جهلٍ وضلالٍ

جملة ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ صفة لـ ﴿ءَاذَانٌ﴾، وفي تعطيلهم آذانهم من مُهمّة السَّمع إزراء عليهم كذلك؛ إذ لا قيمةَ لـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ لا تُسمِعُ القلوبَ؛ بل الخطورة في أنَّهم يسمعون بها سماعَ جهلٍ وضلالٍ، لا سماعَ علمٍ وهدًى؛ فهو سماعٌ مثل عدمه؛ بل عدمه أفضل منه؛ فكأنَّهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1054.

لا يسمعون بها أصلًا، و"ما حَلَّ بالأوَّلين إنَّما يُعرَفُ بأحد أمرَيْن: إمّا بالمعاينة بالنَّظر إليهم، وإمّا بالسَّماع مِنَ الأخبار عنهم"[1].

دلالة المضارعة في ﴿يَسْمَعُونَ﴾:

صيغة المضارع تَبقَى حيّةً تُتيحُ للأجيال المتعاقِبة الإفادةَ من مادَّتها

في صيغة المضارعة للفعل ﴿يَسْمَعُونَ﴾ إزراءٌ على مَنْ لا يَنتفِعُ بالـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ على تطاول الزَّمانِ به مخذولًا عن سماع الحقِّ بها، وحرمانه مع تجدُّد فُرص السّماع أزمانًا بعد أزمان.

وفي المضارعة كذلك دعوةٌ لكلِّ مُتلقٍّ - في كلِّ زمان يتجدَّد - أنْ يَستعمِلَ أداةَ السّمع الموهوبة له مِنَ الحقّ - ﷻ - فيما يُجدي عليه خيرًا، ويوصِّلُه إلى مَرضاته ﷻ مِنَ الإيمان واليقين.

بلاغة القَيد بالجارِّ والمجرور ﴿بِهَا﴾:

مهمَّة الآذان سماع الحقِّ والتقاط إشارات الهُدى

في تقييد سماع الـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ بالجارِّ والمجرور الصّريح ﴿بِهَا﴾ لَفْتٌ إلى مُهمَّة الـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ في سماع الحقِّ، والتقاط إشارات الهُدى، وإيصالها إلى القلب؛ لينعقِدَ عليها، ويعقِلَها، ويوقِنَ بها.

بلاغة حذف مفعول ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾:

مَن عطَّل أُذُنَيهِ عن سماع الحقِّ كَمَن فَقَد حاسَّة السَّمع بالكُلّية

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ والتّقدير: (يَسمَعونَ بها التّخويفَ)[2] و(أخبارَ تلك الأمم، أو: ما يجبُ سماعُهُ مِنَ الوحي)[3]، ولطيفةُ حذفه تجريدُهم من سماع كلِّ مَسموعٍ، وكأنّهم عدموا حاسّةَ السّمعِ أصلًا؛ وفي ذلك مِنَ الإزراء عليهم ما فيه.

سرُّ حذف (الأبصار) في هذا المَوضِع:

أعـيُنٌ لا ترى الحقَّ ولا تَعتَبِرُ بالعِبَر لا قيمةَ لها

لم يذكُرِ القرآنُ هنا أبصارَ الكفّار، "ولم يستدعها كما استدعى قلوبَهم وآذانَهم؛ ولكن أشار إليها ضِمنًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، فكأنَّه قال: أمّا

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 428.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 463.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 521.

أبصارُهُم فلا وزنَ لها إذا لم تكُنْ هناك القلوبُ الّتي تتلقَّى عنها، وتعي ما يجيء إليها منها، فأبصارُهُم معهم، وهي سليمةٌ لا عيبَ فيها، ولكنَّهم مع هذا عُميٌ؛ لأنَّ العَمَى ليس عَمَى الأبصار، ولكنَّه عَمَى القلوب الّتي في الصّدور"[1].

القلوب الّتي تَعقِلُ طريقُ علمِها مشاهَدةُ آثار العذاب والاستئصال

في ذِكْر الآذان اكتفاءٌ عن ذِكْر الأبصار؛ إذ يُعلَمُ أنّ القلوبَ الّتي تَعقِلُ إنَّما طريقُ علمِها مُشاهَدةُ آثار العذاب والاستئصال، كما أشار إليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، فحصل من مجموع نَظم الآيةِ أنّهم بمَنزِلة الأنعام؛ لهم آلاتُ الاستدلال، وقد انعدمَتْ منهم آثارُها؛ فلهم قلوبٌ لا يَعقِلون بها، ولهم آذانٌ لا يَسمَعون بها، ولهم أعينٌ لا يُبصِرون بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: 171]"[2].

معنى الفاء في ﴿فَإِنَّهَا﴾:

لا شأنَ لِعَمَى الأعين بالهُدى أو الضَّلال

الفاء في جملة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فاء التَّعليل؛ أي: بسبب أنَّهم عُمْيُ القلوب، لا عُمي الأبصار، ضلّوا السَّبيل، ويُمكن اعتبارها فاء الحال؛ أي: والحال أنَّ عَمَى الأبصار لا يُعتدُّ به، وإنَّما المدارُ على عَمَى القلوب أو بصيرتها، وهي إلى ذلك تفريعيَّةٌ مُؤذِنةٌ بمحذوفٍ قبلَها، والتَّقدير: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ، أو آذانٌ؛ إذ لا شأنَ لعَمَى الأعين بالهُدى أو الضّلال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾)، وبذلك يكون حذفُ (الأعين) والإشارةُ إليها بـ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من بديع الحذف القرآنيِّ الوافي بمُقتَضى الحال.

نكتة التّوكيد في ﴿فَإِنَّهَا﴾:

غالب الجُمل المفتَتَحة بِضمير الشّأن تؤكَّدُ للاهتمام بها

التّوكيد في جملة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يُقرِّرُ كفايةَ السّمع

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1053.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 288.

في إيصال الحقِّ إلى القلب، وأنّ المَدارَ بعد ذلك على مُعتقَدِ القلوب ذات البصيرة، أو اختلالِ الأسماعِ في قبول الحقّ مما يترتَّبُ عليه عَمَى القلوب المحرومة مِنَ البصيرة؛ لذلك أجازوا أن يكونَ النَّبيُّ غيرَ مُبْصِرٍ[1]، وأنّ السّمعَ - دون البصر - شرطُ النّبوّة.

وكذلك من مُقتضيات التّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ "غَرابَةُ الحُكم؛ لا لأنّه ممّا يُشَكُّ فيه؛ بل لأنّ غالبَ الجُمَل المُفتَتَحة بضمير الشّأن اقترانُها بحرف التّوكيد"[2]؛ وذلك لأنّها قَطعًا "مِنَ الأخبار المُهتمِّ بها"[3].

لطيفة البناء على ضمير القصّة في ﴿فَإِنَّهَا﴾:

عمى البصائر أخطرُ من عمى الأبصار

في تصدير ضمير القصّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تأكيدٌ لدلالة الاكتفاء بعمى ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ والـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ عن عمى الأعين - وهي أداة الإبصار - وأنّ الشّأنَ في بَصر البصيرةِ القلبيّةِ لا بصر الباصرةِ العينيّة.

ومن شأن ضمير القصّةِ والشّأنِ لَفْتُ المُتلقّي إلى مَرجِعه المتأخِّرِ وتقريرِه، وهو هنا عدمُ التّعويل على الأبصار، وتأكيدُ التّعويل على البصائر، الّتي محلُّها القلوبُ الّتي في الصّدور.

توجيهُ القراءات في ضمير القصّة ﴿فَإِنَّهَا﴾:

وردَت قراءةُ ضمير الشّأن ﴿فَإِنَّهَا﴾ على التّأنيث هكذا، و"يجوزُ أن يُقالَ: (فإنه) على التّذكير، وهي قراءةُ عبد الله بن مَسعود، والمعنى واحدٌ، فالتّذكيرُ على الخبَر، والتّأنيثُ على الأبصار أو القصّة؛ أيْ: فإنَّ الأبصارَ لا تَعمَى، أو فإنّ القصّةَ أنّ الأبصارَ لا تَعمَى"[4]، "وحسُنَ التّأنيثُ هنا، ورجَّحَه كونُ الضّمير وليهُ فعلٌ بِعلامةِ التّأنيث، وهي التّاء في ﴿لَا تَعْمَى﴾"[5].

(1) النّوويّ، المجموع شرح المهذّب: 19/ 192، والعمرانيّ، البيان في مذهب الإمام الشّافعيّ: 12/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 163.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 77.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 521.

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

ليس الخللُ في مشاعر الكفّار؛ وإنّما في عقولهم المريضة

﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ صريحة في نفي العَمَى عنِ الأبصار، حتّى وإنْ كان الكافرُ المدعوُّ على التّوحيد كفيفَ العينيْن، وتقرير عدم مَضرّة عَمى العينيْن في باب الاستدلال على وحدانيّة الله تعالى وصدق رُسُله عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّ ذلك لا يقدحُ في إيمان المؤمنين، كما أنّه لا يعوقُ تحقُّقَ الإيمان، وأنّ الّذي يعوقُهُ هو عَمى البصيرة الّتي هي من نِتاج القلوب الّتي في الصّدور؛ والمعنى: "أنّ أبصارَهم صحيحةٌ سالمةٌ لا عَمَى بها، وإنّما العَمى بِقلوبهم، أو: لا يُعتدُّ بعَمَى الأبصار؛ فكأنَّه ليس بعَمًى بالإضافة إلى عَمَى القلوب"[1].

دلالة التّعبير بالعَمَى في جملة ﴿لَا تَعۡمَى﴾:

الكفّار ما عميتْ أبصارُهم عنِ الإبصار؛ بل عميَت قلوبُهم عنِ الاعتبار

في النَّصِّ على لفظ العَمى في جملة النّفي والإثبات ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ تصريحٌ لا مواربةَ فيه بِالجمع بين طَرَفَي المُقابلة المقرِّرة للحُكم بجدوى البصيرة لا البصر في إدراك الحقِّ واعتقاده، والمقصود أنّه "ما عميتْ أبصارُهم عنِ الإبصار؛ بل قلوبُهم عنِ الاعتبار"[2].

نكتة التّعبير بالمضارعة في ﴿تَعۡمَى﴾:

ثبوت انتفاء الأثر بالنّسبة إلى عمى الأبصار دون عمى القلب

في تسليط النّفي والإثبات على صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى﴾... ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى﴾، إشارةٌ إلى ثبوت انتفاء العَمى الأوّل، وتجدُّدِ حصول العَمَى الثّاني؛ أيْ: إنّ عَمى الأبصار ودوامه لا يَعوقُ تحصيلَ أسباب الإيمان، ولا يقدَحُ في تمام اليقين، وأنّ عمى البصائر وتجدُّدَهُ وعدمَ الانتفاع بِفُرَص التّوبة هو الّذي يَعوقُ الإيمان، ويَقدحُ في اليقين؛ فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 162.
(2) النَّسَفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 446.

"لفظُ مبالغةٍ، كأنّه قال: ليس العَمى عَمى العين؛ وإنّما العَمى حقُّ العَمى عَمى القلب"[1].

المقصود بـ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ في ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

المقصود بالأبصار في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ الأعينُ الّتي مهمَّتُها النّظر والرّؤية، فعبَّر بالمُسبَّبِ وأُريدَ سببُهُ الحسّي؛ إتيانًا على الأثر بالنّفي بالكُلّية، بناءً على عدم مَضرَّته في قضية الإيمان، قال الإمام الماورديّ في تفسير ذلك: "يَحتملُ عندي وجهيْن؛ **أحدهما:** أنَّها لا تعمى الأبصارُ عنِ الهدى؛ ولكن تعمى القلوبُ عنِ الاهتداء، **والثّاني:** فإنَّها لا تعمى الأبصارُ عنِ الاعتبار؛ ولكن تعمى القلوبُ عنِ الادِّكار"[2].

إنْ عميت عينا الرّأس وأبصرَت عينا القلب لم يضرَّ العبدَ شيءٌ

دلالة جمع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

في جمع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ موافَقةٌ لِجمع القلوب والآذان في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾.

الحُكمُ بإثبات العَمَى المُعيبِ للقلوب دون الأبصار حكمٌ عامٌّ لكلِّ المُكذِّبين

وفي إطلاق ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ كنايةٌ عنها مُقيّدةٌ بالإضافة إلى الكفّار؛ أيْ: فإنّها لا تعمَى أبصارُهم، ولكن تعمى قلوبُهم الّتي في صدورهم.

غير أنّ النَّظمَ الكريمَ أطلقَ الحُكمَ، ولَم يقيِّده إبعادًا لِذِكْرهم من جهةٍ، والإيحاء بأنّهم كأنّهم حُرِموها أصلًا - فلم تُضَفْ إليهم - من جهة ثانية، وتعميمًا للحُكم من جهة ثالثة، ولتعميم الحكم، وتقرير شيوعه من جهة رابعة.

معنى الواو في ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾:

الواو في جملة ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ عاطفةٌ لِجملة الإثبات

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127، والحديث رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزّكاة، الحديث رقم: (1099).

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 32.

هذه على جملة النّفي السّابقة عليها مباشرةً؛ جمعًا بين الحُكمين في قَرَن؛ لأنَّ الجمعَ بينهما يُحقِّقُ المقابَلةَ الكاشِفةَ عن جُرم الثّاني – وهو عمى القلوب – وتغلغله في باب الحرمان والخذلان بخلاف الأوَّل الّذي لا يَقدحُ في الإيمان؛ فإنَّه "إنْ كانت القوَّةُ الباصرةُ سليمةً؛ فإنَّها لا تنفُذُ إلى العِبَر، ولا تدري ما الخبر"[1].

العينُ الباصِرةُ لا تَـنـفُـذُ إلى العِبر وإنْ كانت سليمةً وإنَّما تنفُذُ إليها عينُ البصيرة

دلالة الحرف (لكن):

يدُلُّ حرفُ الاستدراك (لكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ على قَصر القلب قصرًا إضافيًّا؛ إذ به يكتمِلُ النَّصُّ على المُثبت والمَنفيِّ معًا في طرفي المقابلة؛ وذلك يدعَمُ الحُكمَ الجديدَ ويُقرِّرُهُ في النّفوس، وفي ذلك القصر قلبٌ لِموازين البشر، القاطعة بمَضَرّة عَمى عينَي الرّأس دون الالتفاف إلى مَضرَّة عمى عينَي القلب.

القَصرُ بالنَّصِّ عـلى المُـثـبَـت والمَـنـفـيِّ معًا يـدعَـمُ الحُكمَ ويُـقـرِّرُهُ في النُّفوس

ويمكن اعتبارُ القصر هنا "قصرًا ادّعائيًّا للمبالغة بجَعلِ فَقدِ حاسّة البصر المسمّى بالعَمى كأنّه غيرُ عَمى، وجَعلِ عدمِ الاهتداءِ إلى دلالة المُبصَرات مع سلامة حاسَّة البصر هو العَمى، مبالغةً في استحقاقه لهذا الاسم الّذي استُعير إليه"[2].

ولأنَّ الأصلَ عند النّاس منذ القِدم أنّ العَمَى عمَى العينيْن؛ فإنَّه "لمّا نَزَلَ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: 72] قال ابنُ أمِّ مَكتوم: يا رسولَ الله؛ فأنا في الدّنيا أعمى أفأكونُ في الآخرة أعمى؟ فنَزَلَت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أيْ: مَن كان في هذه أعمى بقلبه عنِ الإسلام؛ فهو في الآخرة في النّار"[3]؛ فحَمَلَ الأمرَ على الظّاهر المعهود عندهم مِن أنّ العَمَى عَمى عينَي الرّأس.

الأصـــلُ عـنـد الـنّـاس مـنـذ القِدم أنّ العَمَى عمَى العينيْن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 438.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 290.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 77.

نكتة إثبات العمى للقلوب:

عدم فِقه القلب هو العمى الّذي لا عَمى بعده

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: "أمّا هذه الأبصار الّتي في الرّؤوس فقد جعلَها اللّهُ تعالى مَنفعةً وبُلغَةً، وأمّا البصرُ النّافِعُ فهو في القلب"[1]؛ فـ"كأنّ عمى الأبصار ليس بعمًى بالإضافة إلى عمى القلوب؛ فالكلامُ تذييلٌ لِتهويل ما بِهم مِن عدم فِقه القلب، وأنَّه العمى الّذي لا عَمى بعدَهُ؛ بل لا عَمَى إلّا هو ... فإنّ الآفةَ ببصائر قلوبِهم لا بإبصار عيونِهم، وهي الآفةُ الّتي كلُّ آفةٍ دونَها، كأنَّه يَحثُّهم على إزالة المرض، ويَنعى عليهم تَقاعُدَهم عنها"[2].

جملة ﴿تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾ بين الاستعارة والمَجاز المُرسَل:

دَورُ البصيرة هو الفاعل في توجيه أصحابها لا دَور الأبصار

في إضافة العَمَى إلى القلوب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾ إضفاءٌ لصفات بصر العين على بصيرة القلوب، على سبيل الاستعارة المَكنيَّة بإثبات العَمَى إلى القلوب، وهي في الأصل إلى الأعيُن.

وفي تلك الاستعارة تتحقَّقُ المبالغةُ في إثبات دَور القلوب في توجيه أصحابها، والحُكم عليهم من خلال ما تُبصِرُهُ القلوبُ مِنَ الحقائق، وما تنعقِدُ عليه مِنَ العقائد، دون ما يتوقَّفُ بصرُهُ عند حدود عينَي الرّأس، ولا ينفُذُ منهما إلى القلب؛ "فاستُعيرَ العمى الثّاني لانتفاء إدراك المُبصَرات بالعقل مع سلامة حاسّة البصر؛ لِشَبَهِه به في الحالة الحاصِلة لِصاحبه"[3].

آلـةُ العقل هي الدّماغ والقلوب هي العقل

وإطلاقُ القلوبِ على تقاسيم العقل "مَجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنّ القلبَ هو مُفيضُ الدّم - وهو مادّةُ الحياة - على الأعضاء الرّئيسة، وأهمُّها الدّماغُ، الّذي هو عضو العقل؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، وإنّما آلةُ العقلِ هي الدِّماغُ؛ ولكنّ الكلامَ جرى أوَّلُه على مُتَعارَفِ أهلِ

(1) السُّيوطيُّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 61.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 159.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.

اللّغةِ، ثمّ أُجري عَقِبَ ذلك على الحقيقةِ العلميّة، فقال سبحانه: ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾؛ فأشار إلى أنّ القلوبَ هي العَقلُ"[1].

إنْ لـم يكُـنْ لـلـمـرء قـلـبٌ يـقِـظٌ؛ فليفتَحْ أُذُنَـــه لِـدعـوة الدّاعي

في الآية "إشارةٌ إلى أنّ السّيرَ في الأرض، لا يَفيدُ منه صاحبُه شيئًا إلّا إذا كان معه قلبٌ مُتفتِّحٌ، يتلقّى المؤثّراتِ الخارجيّةَ، ويتأثّرُ بها، ويتفاعَلُ معها، فإنْ لم يكُنْ له هذا القلبُ اليقِظُ المُتفتِّحُ فليفتَحْ أُذُنَه لِدعوة الدّاعي ونذيرِ المُنذِرِ؛ فإنَّ الأعمى يتَّخذُ من أُذُنه أداةً عاملةً تقومُ مَقامَ عينيه، وتصلُ ما بينه وبين الوجود.

أمّا هؤلاء القوم الضّالّون، فلم تكُنْ لهم قلوبٌ يعقلون بها، ولم تكُنْ لهم آذانٌ يسمعون بها، لقد عطّلوا حواسَّهم؛ فهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ لا يعقلون"[2].

دلالة التّعبير في الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

في إيثار صفة ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ في جملة ﴿تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ تهيئةٌ لِجملة الصِّلة المُقدَّرة، والمدلول عليها بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾، والتّقدير: (تعمى القلوبُ الّتي تستقرُّ في الصّدور)، وسرُّ حذف رأس الصّلةِ (تستقرّ) الإفساحُ للقيد الأهمّ؛ وهو ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾، والاكتفاءُ به عنِ المَحذوف.

إشارة الجمع في ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ وسِرُّ تعريفها بـ(أل):

قوله تعالى: ﴿ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يعني: "العقول الّتي في الصّدور"[3]، وفي جمع ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ اتّساقٌ مع جمع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بعد الـ ﴿ءَاذَانٌ﴾؛ لإرادة جموع الكفّارِ المَخذولين، الّذين لم ينتفعوا من ذلك كلِّه بشيءٍ.

"والتّعريفُ في الأبصار والقلوب والصّدور تعريفُ الجنس الشّاملِ لقلوب المُتَحَدَّثِ عنهم وغيرهم، والجمعُ فيها باعتبار أصحابِها"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 288.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1052.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 463.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.

براعةُ القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾:

العَمَى المعيبُ عَمَى القلب لا عَمَى العَين

في ذِكْر القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾ هنا براعةٌ فائقةٌ تليقُ ببلاغة الذِّكر الحكيم؛ لِما في ذِكْره مِن تحقيق الحُكم بالعَمى لهذه ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾؛ لأنّ القلوبَ، وإنْ كانت قطعًا في الصّدور، فإنَّ العمى فيها ليس مشهورًا مُتعارَفًا عليه، وإنّما يكون للأبصار الّتي في الرّؤوس؛ فكان في النَّصِّ على القيد ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾ تثبيتٌ لهذا الحُكم الجديد بإثبات العمى للقلوب، ونفيه عمّا شاع لها وثبت - وهي العيون، قال الزَّجّاج: "القلبُ لا يكونُ إلّا في الصّدرِ، ولكن جَرَى على التَّوكيدِ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: 167]، وكما قال: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38] ... فالتّوكيدُ جارٍ في الكلام مُبالِغٌ في الإفهامَ"(1).

دلالة الظّرفيّة في القيد: ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾:

قد يُستفاد التّعريضُ من قيدٍ في الجملةِ

يعطي القيدُ ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾ - فضلًا عنِ التّوكيد - "تَعريضًا بِالقوم المُتَحَدَّثِ عنهم بِأنّهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدّة اتِّصالها بهم؛ إذ هي قارَّةٌ في صدورهم على نحو قول عُمَرَ بنِ الخطاب لرسول الله ﷺ: (فالآنَ أنتَ أحَبُّ إليَّ من نفسي الّتي بين جَنْبَيَّ)، فإنّ كونَها بين جَنْبَيْهِ يَقتضي أن تَكونَ أحبَّ الأشياء إليه"(2).

دلالة جمع ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ وتعريفها:

في جمع ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مناسَبةٌ وموافَقةٌ لجمع ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾؛ ففي كلِّ صدرٍ قلبُه، وفي الجمع مع تعريف ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ قوّةٌ تَمنَحُ الحُكمَ قبولًا، وتُقرِّرُهُ في النّفوس، "والتّعريفُ في الأبصار والقلوب والصّدور تعريفُ الجنس الشّاملِ لِقلوب المُتَحَدَّثِ عنهم وغيرِهم"(3).

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 432.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.

بلاغة الكناية في ذِكْر ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

تحديد مكان القلب في الآية الكريمة ينفي التَّجوُّزَ به غيره

في ذِكر ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ كنايةٌ عن حصانة ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ وصيانتها مِنَ الآثار الدَّخيلة الّتي تتسلَّطُ عليها من خارجها؛ فلا حُجّةَ لأصحابها في اختلال عقائدها، وتَبنّيها الكفر والضّلال، وتخلّيها عنِ الإيمان والهدى، وأيضًا "لئلّا يُقالَ: إنّ القلبَ يُعنى به غيرَ هذا العضو، كما يُقالُ: القلبُ لبُّ كلِّ شيءٍ"(1)، وحيثُ "وُصِفَتِ القلوبُ هنا بأنّها تَعقِلُ وتُدرِكُ ... كان تحديدُ مكانِها أمرًا لازمًا؛ حتّى يتقرَّرَ أنّها المقصودةُ بذاتها، وليست العقول"(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القلوب والأفئدة:

يوصَفُ الفؤادُ بالرِّقَّة والقلبُ باللّين

"لم يُفرِّقْ أهلُ اللّغة بين القلب والفؤاد؛ بل عرَّفوا كلًّا منهما بالآخر، وقال بعض أهل الحديث: الأفئدة: توصَفُ بِالرِّقَّة، والقلوبُ باللّين؛ لأنّ الفؤادَ غِشاءُ القلب، إذا رقّ نفذَ القولُ فيه، وخلصَ إلى ما وراءه، وإذا غَلَظَ تعذَّرَ وصولُه إلى داخله، وإذا صادَفَ القلبُ شيئًا عَلَقَ به إذا كان ليِّنًا"(3)؛ وعلى ذلك فالقلبُ عُمقُ الفؤاد ولُبُّه؛ فإذا عمي اللُّبُّ لم يَنتفعِ الغشاءُ الخارجيُّ (أي: الفؤاد) بالهُدى؛ لذلك عَبَّرَ به الذِّكرُ الحكيمُ هنا.

الأبصار والأعين:

البصر الرُّؤية، والعين آلتُه

معلومٌ أنّ العينَ آلةُ البصر، وهي الحَدقةُ، والبصرُ اسمٌ للرُّؤية؛ ولهذا يُقال: إحدى عينيْه عمياء، ولا يُقال: أحد بصريْه أعمى، وربما يَجري استعمالُ البصرِ على العين الصّحيحة مجازًا، ولا يجري استعمالُهُ على العين العمياء، وقد يُسمَّى العِلمُ بالشّيء إذا كان جليًّا: بصرًا، يُقال: لك فيه بصرٌ؛ يُرادُ أنّك تعلمُهُ كما يراه غيرُكَ(4).

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 446.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1053.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 433.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 381.

لقد نفى الذِّكرُ الحكيمُ العمى عنِ الأبصار لا العيون؛ إذِ الأبصارُ ثمرةُ ما يُبصِرُ منها؛ ليثبتَهُ للقلوب الّتي أكّدَ قصدَهُ إيّاها؛ وذلك بذِكْر مَواضِعها ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»